الْبَابُ الثَّالِثُ

(النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرِّسَالاتُ السَّابِقَةُ)

ويتضمن المباحث التالية :

١- الدِّينُ وَاحِدٌ

٢- الْمَبَادِئُ الْخَالِدَةُ (مَسَائِلُ الْعَقِيدَةِ)

٣- الْقَوَاعِدُ الْعَامَّةُ

٤- الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاتٍ

٥- الطُّولُ وَالْقِصَرُ فِي وَقْتِ النُّزُولِ

٦- مَوْقِفُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ مِنَ الرِّسَالاتِ السَّابِقَةِ

٧- عَدَمُ حَاجَةِ الشَّرِيعَةِ الْخَاتِمَةِ إِلَى غَيْرِهَا

البَابُ الثَّالِثُ

(النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرِّسَالاتُ السَّابِقَةُ)

إِنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَبَادِئِ الَّتِي اتَّفَقَ فِيهَا الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ إِخْوَانِهِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١- الدِّينُ وَاحِدٌ :

إن الرِّسَالَاتِ السَّماوِيَّةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءُ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهَا تُمَثِّلُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَاحِدًا يَسْلُكُهُ السَّابِقُ وَاللَّاحِقُ، وَمِنْ خِلَالِ اسْتِعْرَاضِنَا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ نَجِدُ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ جَمِيعًا وَاحِدٌ هُوَ الْإِسْلَامُ ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ** ﴾(آل عمران:١٩).

وَالْإِسْلَامُ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ لَيْسَ اسْمًا لِدِينٍ خَاصٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْمٌ لِلدِّينِ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي هَتَفَ بِهِ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَنُوحٌ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾**﴾ (يونس).

وَالْإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ أَبَا الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾** ﴾ (البقرة).

وَأوصَى بِهِ كُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ أَبْنَاءَهُ قَائِلًا: ﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾** ﴾ (البقرة). وَكانَ جَوابُ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ لِأَبِيهِمْ: ﴿**نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ**

ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (البقرة).

وَهَا هُو مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (يونس).

وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (آل عمران)، وَحِينَ سَمِعَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ هذَا الْقُرْآنَ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (القصص).

فَالْإِسْلَامُ شِعَارٌ عَامٌّ كَانَ يَدُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ إِلَى عَصْرِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهُوَ يَعْنِي الطَّاعَةَ وَالِانْقِيَادَ وَالِاسْتِسْلَامَ لله تَعَالَى، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا يَنْهَى عَنْهُ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ فِي عَهْدِ نُوحٍ كَانَ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ نُوحٌ، وَفِي عَهْدِ مُوسَى كَانَ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ مُوسَى، وَفِي عَهْدِ عِيسَى كَانَ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ، ثُمَّ أَخِيرًا فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ بِالْتِزَامِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلُبُّ دَعَوَاتِ الرُّسُلِ -أي دعوة الإسلام- وَجَوْهَرُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَبْذُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَأَكَّدَهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وبصورٍ مُتَنَوِّعَةٍ:

• مِنْها: أنْ يَذْكُرَ دَعْوَةَ كُلِّ رَسُولٍ عَلَى حِدَةٍ: حَيْثُ يَقُولُ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩)، وكذا هود وصالح وشعيب عليهم السلام. وهَذَا إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (العنكبوت).

• وَمِنْهَا: أنْ يَنُصَّ سبحانه عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ جَمِيعًا بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْوَاحِدَةِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء).

• وَمِنْهَا: أنْ يَسْرُدُ سِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَيَنْظِمُهُمْ فِي سِلْكٍ وَاحِدٍ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً لَهَا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنبياء).

• وَمِنْهَا: أنْ يَجْعَلُ الِاسْتِجَابَةَ لله سُبْحَانَهُ وَتَحْقِيقَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ هِيَ الدِّينُ وَالْمِلَّةِ، وَيَجْعَلُ مَنْ رَفَضَهَا يَحْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ بِالسَّفَهِ وَالضَّلَالِ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾(البقرة: ١٣٠)، وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَدَّدَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام).

• وَمِنْهَا: أنْ يَعْرِضَهَا فِي صُورَةِ وَصِيَّةِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (البقرة).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى وَلَدَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ :

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّ نَبِيَّ الله نُوحًا لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ

وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً (مُغْلَقَةٌ)، قَصَمَتْهُنَّ (كَسَرَتْهُنَّ) لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ }(١).

• وَلَمْ تَكْتَفِ الرِّسَالَاتُ السَّابِقَةُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، بَلْ بَيْنَتِ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْعَلُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ هِيَ الْحَقَّ الَّذِي لَا مَحِيصَ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِذِكْرِ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَبِالْحَدِيثِ عَنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَبِتَوْجِيهِ الْأَنْظَارِ وَالْعُقُولِ لِلنَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَنُوحٌ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ (نوح).

وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَرَدَّدُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِمَا كَمَا أَخْبَرَنَا الْقُرْآنُ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ (النجم).

---

١) رواه أحمد برقم (٦٥٨٣)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٥٤٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٤٢٦).

٢- الْمَبَادِئُ الْخَالِدَةُ (مَسَائِلُ الْعَقِيدَةِ) :

لَيْسَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الله وَحْدَهُ هِيَ الْقَضِيَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي اتَّفَقَتْ فِيهَا الرِّسَالَاتُ، فَأَمَاكِنُ الاتِّفَاقِ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ أُمُورُ الِاعْتِقَادِ الَّتِي تُشَكِّلُ تَصَوُّرًا وَاحِدًا وَأَسَاسًا وَاحِدًا لَدَى جَمِيعِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

فَأَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَّرَ قَوْمَهُ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ (نوح).

وَأَعْلَمَهُمْ بِوجودِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ الْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ (المؤمنون).

وَكَانَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَاضِحًا فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ (البقرة).

وَكَذَلِكَ فِي دَعْوَةِ مُوسَى؛ وَلِذَلِكَ نَرَى السَّحَرَةَ عِنْدَمَا يَخِرُّونَ سُجَّدًا يَقُولُونَ لِفِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ (طه).

وَجَاءَ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى).

• وَقَدْ أَنْذَرَ جَمِيعُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ أُمَمَهُمْ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: { إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ }(١).

٣- الْقَوَاعِدُ الْعَامَّةُ:

وَالْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ تُقَرِّرُ الْقَوَاعِدَ الْعَامَّةَ الَّتِي لَابُدَّ أَنْ تَعِيَهَا الْبَشَرِيَّةُ فِي مُخْتَلِفِ الْعُصُورِ، ومنْ ذَلِكَ:

• قَاعِدَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَاسَبُ بِعَمَلِهِ، فَيُعَاقَبُ بِذُنُوبِهِ هُوَ وَلَا يُؤَاخَذُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، وَيُثَابُ بِسَعْيِهِ، وَلَيْسَ بِسَعْيِ غَيْرِهِ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم).

• وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفَلَاحَ الْحَقِيقِيَّ يَتَحَقَّقُ بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِمَنْهَجِ اللهِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَهُ، وَإِيثَارِ الْآجِلِ عَلَى الْعَاجِلِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ

---

١) رواه البخاري برقم (٣٠٥٧).

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى).

• وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ وِرَاثَةَ الْأَرْضِ هُمُ الصَّالِحُونَ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء).

ولَقَدْ سَأَلَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مُحْتَوَيَاتِ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَصُحُفِ مُوسَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا كَانَتْ صَحِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ ؟

قَالَ: { كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ. وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ الله، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ. وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ. وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ }. قُلْتُ يَا رَسُولَ الله فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى ؟

قَالَ: { كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هُوَ يَضْحَكُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ، عَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ثُمَّ لَا يَعْمَلُ }(١).

---

١) رواه ابن حبان (٣٦١)، وقال الألباني: ضعيف جدًّا (ضعيف الترغيب والترهيب) (١٣٥٢).

• وَالْقُرْآنُ يُخْبِرُنَا أَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا حَمَلُوا مِيزَانَ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥)

• وَأَنَّهُمْ أُمِرُوا بِكَسْبِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (المؤمنون).

• وَكَثِيرٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي نَقُومُ بِهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء).

وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ (مريم).

وَقَالَ اللهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ (طه).

وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ (مريم).

• وَالصَّوْمُ كان مَفْرُوضًا عَلَى مَنْ قَبْلَنَا كَمَا هُوَ مَفْرُوضٌ عَلَيْنَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ (البقرة).

• وَالْحَجُّ فَرَضَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ بَعْدَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ أن يؤَذِّنَ في الناس بِالْحَجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ (الحج).

وَقَدْ كَانَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَنَاسِكُهَا وَعِبَادَتُهَا ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾(الحج:٣٤)، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾(الحج:٦٧).

وَكَانَ مِنْ هَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ: الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَقَدْ حَجَّ الْبَيْتَ مُوسَى وَيُونُسُ عليهما السَّلامُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَمَرَرْنَا بِوَادٍ، فَقَالَ: **{ أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ }** فَقَالُوا: وَادِي الْأَزْرَقِ. قَالَ: **{ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى - فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعْرِهِ شَيْئًا -، وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، لَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي }** قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ (الثَّنِيَّةُ: الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ). فَقَالَ: **{ أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ }** فَقَالُوا: هَرْشِي -أو لِفْتُ-.فَقَالَ: **{ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ،** (الْخِطَامُ الزِّمَامُ، وَالْخُلْبَةُ: لِيفَةُ نَخْلٍ) **مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا }**(١).

• وَمِمَّا اتَّفَقَتْ فِيهِ الرِّسَالَاتُ أَنَّهَا بَيَّنَتِ الْمُنْكَرَ وَالْبَاطِلَ وَدَعَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ وَإِزَالَتِهِ، سَوَاءٌ أَكَانَ عِبَادَةَ أَوْثَانٍ، أَمِ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ، أَمِ انْحِرَافًا عَنِ الْفِطْرَةِ، كَفِعْلِ قَوْمِ لُوطٍ، أَوْ عُدْوَانًا عَلَى الْبَشَرِ وَأَحْوَالِهِمْ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ وَالتَّطْفِيفِ فِي الْمِيزَانِ.

---

١) رواه مسلم برقم (١٦٦).

إلا أنَّ هُنَاكَ مَوَاضِعَ اخْتِلَافٍ بَيْنَ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ :

وَإِذَا كَانَ الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَاحِدًا وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَإِنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَشَرِيعَةُ عِيسَى تُخَالِفُ شَرِيعَةَ مُوسَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَشَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُخَالِفُ شَرِيعَةَ مُوسَى وَعِيسَى فِي أُمُورٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ (المائدة٤٨). وَالشِّرْعَةُ: هِيَ الشَّرِيعَةُ ،وَهِيَ السُّنَّةُ، وَالْمِنْهَاجِ: الطَّرِيقُ وَالسَّبِيلُ.

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الشَّرَائِعَ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كُلِّيًّا؛ فَالنَّاظِرُ فِي الشَّرَائِعِ يَجِدُ أَنَّهَا مُتَّفِقَةٌ فِي الْمَسَائِلِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ النُّصُوصِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ تَشْرِيعِ اللهِ لِلْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَأَخْذِ الطَّعَامِ مِنْ حِلِّه وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالِاخْتِلَافُ بَيْنَهَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاصِيلِ؛ فَأَعْدَادُ الصَّلَوَاتِ وَشُرُوطُهَا وَمَقَادِيرُ الزَّكَاةِ وَمَوَاضِعُ النُّسُكِ وَنَحْوُ ذَلِكَ قَدْ تَخْتَلِفُ مِنْ شَرِيعَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَقَدْ يُحِلُّ اللهُ أَمْرًا فِي شَرِيعَةٍ، وَيُحَرِّمُهُ فِي شَرِيعَةٍ أُخْرَى لِحِكْمَةٍ يَرَاهَا سُبْحَانَهُ.

وَنَضْرِبُ لِهَذَا ثَلَاثَةَ أَمْثِلَةٍ:

الْأَوَّلُ: الصَّوْمُ: فَقَدْ كَانَ الصَّائِمُ يُفْطِرُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ، وَيُبَاحُ لَهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالنِّكَاحُ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، مَا لَمْ يَنَمْ، فَإِنْ نَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ حُرِّمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي، فَخَفَّفَ اللهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَحَلَّهُ مِنَ الْغُرُوبِ إِلَى الْفَجْرِ سَوَاءٌ أَنَامَ أَمْ لَمْ يَنَمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟**

﴿وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (البقرة).

الثَّانِي: سَتْرُ الْعَوْرَةُ حَالَ الِاغْتِسَالِ: وَلَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ ... }**(١).

الثَّالِثُ: الْأُمُورُ الْمُحَرَّمَةُ: فَمِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ لآدمَ تَزْوِيجُ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، ثُمَّ حَرَّمَ اللهُ هَذَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ التَّسَرِّي عَلَى الزَّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجَرَ لَمَّا تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَةَ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ مِثْلَ هَذَا فِي التَّوْرَاةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ سَائِغًا، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَحَرَّمَ يَعْقُوبُ عَلَى نَفْسِهِ لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَ الْإِبِلِ (٢).

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: **{ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا }**(٣)، وَهَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٧٨)، ومسلم برقم (٣٣٩).

٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥) الطبعة العلمية.

٣) رواه أحمد برقم (٢٤٧١)، والطبراني في الكبير برقم (١٣٠١٢)، وهو حسن بطرقه.

وَحُرِّمَ فِي التَّوْرَاةِ: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ (آل عمران: ٩٣).

وَمِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى الْيَهُودِ مَا قَصَّهُ عَلَيْنَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (الأنعام). فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَهُوَ الْبَهَائِمُ وَالطَّيْرُ مَا لَمْ يَكُنْ مَشْقُوقَ الْأَصَابِعِ كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ إِلَّا الشَّحْمَ الَّذِي عَلَى ظُهُورِهَا ، أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا وَهُوَ مَا تَحَوَّى فِي الْبَطْنِ وَهِيَ الْمَبَاعِرُ وَالْمَرَابِضُ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ.

وَهَذَا التَّحْرِيمُ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ خُبْثَ الْمُحَرَّمِ ،إِنَّمَا سَبَبُهُ الْتِزَامٌ مِنْ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ فِي بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَأَلْزَمَ أَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وبَعْضُ الْمُحَرَّمَاتِ سَبَبُهُ ظُلْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ ﴾(الأنعام: ١٤٦) وَقَالَ: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ ﴾ (النساء).

ثُمَّ جَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَحَلَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴾(آل عمران:٥٠)، وَجَاءَتِ الشَّرِيعَةُ الْخَاتِمَةُ لِتَكُونَ الْقَاعِدَةُ: **إِحْلَالَ الطَّيِّبَاتِ وَتَحْرِيمَ الْخَبَائِثِ.**

٤- الأنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاتٍ :

وَقَدْ ضَرَبَ الرَّسُولُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَثَلًا لِاتِّفَاقِ الرُّسُلِ فِي الدِّينِ الْوَاحِدِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي الشَّرَائِعِ، فَقَالَ: { **أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ** }(١).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « { **الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ** } ، وَفِي رِوَايَةٍ: { **وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ** }. وَالْعَلَّاتُ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ: الضَّرَائِرُ، وَأَوْلَادُ الْعَلَّاتِ الْإِخْوَةُ مِنَ الْأَبِ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ فُرُوعُ الشَّرَائِعِ »(٢).

٥- الطُّولُ وَالْقِصَرُ فِي وَقْتِ النُّزُولِ :

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَطْوَلُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَشْمَلُهَا، فَفِي الْحَدِيثِ: { **أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ** }(٣).

وَالْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ لَنَا كُلُّهَا أُنْزِلَتْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: { **أُنْزِلَتْ صُحُفُ**

---

١) رواه البخاري، (٣٤٤٣)، ومسلم، (٢٣٦٥) واللفظ للبخاري.
٢) فتح الباري، (٦/ ٤٨٩) .
٣) رواه أحمد برقم (١٦٩٨٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (١٠٥٩) .

إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ}(١).

٦- مَوْقِفُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ مِنَ الرِّسَالاتِ السَّابِقَةِ:

جَاءَ هَذَا وَاضِحًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، وَكَوْنُ الْقُرْآنِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ تَحَقَّقَ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَمَدْحَهُ، وَالْإِخْبَارَ بِأَنَّ اللهَ سَيُنَزِّلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ نُزُولُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الْكُتُبُ السَّابِقَةُ تَصْدِيقًا لِتِلْكَ الْكُتُبِ، مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ الَّذِينَ انْقَادُوا لِأَمْرِ اللهِ وَاتَّبَعُوا شَرَائِعَهُ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ (الإسراء).

أَيْ: إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا اللهُ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ

---

١) روى أحمد بعضه برقم (١٦٩٨٤)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٨٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٤٩٧).

وَبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ لَمفْعُولًا، أَيْ: لَكَائِنًا لَا مَحَالَةَ وَلَا بُدَّ(١).

الثَّانِي: أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِأُمُورٍ صَدَّقَ فِيهَا الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ السَّابِقَةَ بِمُوَافَقَتِهِ لَهَا ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾(المدثر:٣١).

الثَّالِثُ: أَنَّ الْقُرْآنَ أَخْبَرَ بِإِنْزَالِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهَا كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ : الْمُهَيْمِنُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْقَائِمُ عَلَى الشَّيْءِ(٢)، وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَائِمٌ عَلَى شُئُونِ خَلْقِهِ، تَصْرِيفًا وَتَدْبِيرًا وَرِعَايَةً.

وَالْقُرْآنُ قَائِمٌ عَلَى الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ مِنْ قَبْلُ، يَأْمُرُ بِالْإِيمَانِ بِهَا، وَيُبَيِّنُ مَا فِيهَا مِنْ حَقٍّ، وَيَنْفِي التَّحْرِيفَ وَالتَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهَا، وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ؛ لِأَنَّهُ الرِّسَالَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي يَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهَا، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهَا، وَالتَّحَاكُمُ إِلَيْهَا، وَكُلُّ مَا خَالَفَهَا مِمَّا جَاءَ فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ، فَهُوَ إِمَّا مُحَرَّفٌ مُغَيَّرٌ، وَإِمَّا مَنْسُوخٌ.

يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَقْوَالَ السَّلَفِ فِي مَعْنَى كَلِمَةِ (مُهَيْمِنٍ): « وَهَذِهِ

---

١) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٥) بتصرف.

٢) لسان العرب، ابن منظور، (٣/ ٨٣٣) مادة (همن).

الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ الْمُهَيْمِنِ يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ، جَعَلَ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ وَخَاتِمَهَا وَأَشْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَكْمَلَهَا، حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا »(١).

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْمَرْجِعَ الْأَوَّلَ وَالْأَخِيرَ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى الدِّينِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ تَعَالَى، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نُحَاكِمَ الْقُرْآنَ إِلَى الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ كَمَا يَفْعَلُ الضَّالُّونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت).

٧- عَدَمُ حَاجَةِ الشَّرِيعَةِ الْخَاتِمَةِ إِلَى غَيْرِهَا :

الشَّرِيعَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْخَاتِمَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى شَرِيعَةٍ سَابِقَةٍ عَلَيْهَا، وَلَا إِلَى شَرِيعَةٍ لَاحِقَةٍ لَهَا، بِخِلَافِ شَرِيعَةِ الْمَسِيحِ، فَقَدْ أَحَالَ الْمَسِيحُ أَتْبَاعَهُ فِي أَكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوْرَاةِ، وَشَرِيعَةُ الْإِنْجِيلِ مُكَمِّلَةٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُحْتَاجِينَ إِلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْمَسِيحِ كَالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ، وَكَانَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِنَا مُحْتَاجِينَ إِلَى مُحَدَّثِينَ، بِخِلَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَاهُمْ بِهِ، فَلَمْ يَحْتَاجُوا مَعَهُ إِلَى نَبِيٍّ وَلَا مُحَدَّثٍ (٢).

*****

١) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٦).

٢) انظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٢٢٤).